الفصل الأول

حياة ابن الخطيب
وآراء بعض المستشرقين حوله

ابن الخطيب

713 ـ 776 هـ (1313 ـ 1374 م)

ثانى اثنين أرّخا لعصر بنى الأحمر ، فكشفا عن السلالة النصريـة ، حتىعصرهما الذى عاشاه جنباً الى جنب ، ولم ينل من علاقتهما الطيبة سوى التنازع على المزيد من السلطة ، فى دولة طالما استبد فيها الحجاب والوزراء ، وانتقصوا من سلطة السلطان ، فكانت نهايتهم على يـدى من نازعوهم أمـور المملكة ، بايعاز من صاحب سلطة قضائية أو ادارية ، وهذا ما حدث بين ابن الخطيب ، وبين قاضى الجماعة أبى الحسن على النباهى الجذامى ، على نحو ما سنرى من خلال سيرة الأول .

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد ، بن عبد الله ، بن عبد الله ، بن سعيد ، بن على ، بن أحمد ، السلمانى ، نسبة الى سَلْمان ، بقعة باليمن نزلت بها بعض القبائل القحطانية ، وكانت أسرة ابن الخطيب احدى هذه القبائل ، ومن اليمن وفدت الأسرة الى الأندلس ، حيث اتخذت قرطبة مقراً لها .

ثم هاجرت الأسرة الى طليطلة ـ كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه فى مقدمة « الاحاطة » ـ عام 202 هـ 817 م ، وهو العام الذى حدثت فيه ثورة أهل الربض بقرطبة ، ضد أمير الأندلس الحكم بن هشام ، حيث حرض الفقهاء أهل الربض ضد الأمير ، ولكن الحكم قضى على الثورة فى الموقعة المشهورة

بـ (موقعة الربض) وشتت شمل القائمين بها ، فنفى من نفى ، وشرد من شرد ، وغادر قرطبة جمهور من المعارضين وعديد من العلماء ، ومن هؤلاء أسرة ابن الخطيب ، حيث قصدت طليطلة ، فبقيت بها قرابة قرن ونصف ، ولما أحست أسرة المترجم له بالخطر المحدق بالمدينة ـ حيث أصبحت هدفاً للأسبان فى أواسط القرن الخامس الهجرى (أوائل القرن الثانى عشر الميلادى) ـ بادرت بالنزوح عنها الى مدينة لوشة (1) مسقط رأس ابن الخطيب فى 25 رجب 713 هـ (16 نوفمبر 1313 م) .

تربى ابن الخطيب فى أسرة عرفت بالاصالة والعلم والجاه ، فقد كان أبوه عبد الله من أكابر العلماء والخاصة ، كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه ، حيث ترجم لأبيه فى كتابه (الاحاطة فى أخبار غرناطة) فروى لنا أنه ولد فى (672 هـ = 1273 م) واستقر حيناً فى غرناطة ، ثم عاد الى لوشة مقر الأسرة ، ثم رجع الى غرناطة أخيرا ، حيث التحق بخدمة السلطان أبى الوليد اسماعيل ملك غرناطة (713 ـ 725 هـ ـ 1314 ـ 1324 م) .

وقد كانت أسرته تحمل اسم « الوزير » الى أن جاء جده سعيد فعرفت باسم « الخطيب » .

ولما توفى هذا السلطان ، وخلفه ابنه السلطان أبو عبد الله محمد ، التحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته أيضا ، ثم بأخيه السلطان أبى الحجاج يوسف (733 ـ 755 هـ ـ 1333 ـ 1354 م) ، حيث عاصر الكاتب الكبير ، والرئيس العظيم أبا الحسن على بن الجيّاب ، والذى مُنِح من قِبَله لقب الوزارة ، وأخيراً سقط عبد الله مع ولده الأكبر ـ أخى لسان الدين ـ قتيلا فى موقعة طريف الشهيرة ، التى تمخضت عن فوز الأسبان على المسلمين من الأندلس والمغرب ، وسقوط كل من طريف ثم الجزيرة الخضراء وقلعة بنى سعيد ، وذلك فى جمادى الأولى 741 هـ (1340 م) .

---

1) تعرف فى الاسبانية اليوم باسم « **Loja** » ، تقع على بعد 55 كم غرب غرناطة ، وهى احدى المدن الاسلامية الشهيرة أيام حكم العرب ، وقد استردها الأسبان قبل سقوط غرناطة بقليل (891 هـ = 1486 م) ، يقدر عدد سكانها حالياً بعشرين الف نسمة تقريبا ، بينما كان عدد السكان ـ على عهد ابن الخطيب ـ يجاوزون هذا العدد بكثير كما يتضح من تاريخ المدينة يومئذ .

لقد نشأ ابن الخطيب فى العاصمة غرناطة ، وتلقى بها دراسته (2) ، فقد كانت وقتئذ ميداناً احتشد فيه الأكابر من العلماء والأدباء ، فدرس اللغة والشريعة والأدب على جماعة من أقطاب العصر ، مثل « أبى عبد الله بن الفخار الألبيرى » شيخ النحاة فى عصره ، « وأبى عبد الله بن مرزوق » فقيه المغرب الكبير ، « والقاضى أبى البركات بن الحاج البلفيقى » ، ودرس الأدب والشعر على الوزير « أبى عبد الله ابن الحكيم اللخمى » وعلى الرئيس « أبى الحسن على بن الجياب » ، وغير هؤلاء ، كما درس الطب والفلسفة على حكيم العصر وفيلسوفه الشيخ « يحيى بن هذيل » . فلا نبالغ اذن اذا قلنا : ان غرناطة ـ فى ذلك الوقت ـ كانت أعظم مركز للدراسات الأدبية والعلمية والاسلامية ، فى هذا القطر الغربى من العالم الاسلامى ، وكان هذا من حظ ابن الخطيب الى حد بعيد .

هذا ، وقد تأثر مستقبل ابن الخطيب السياسى بحكم منصب والده ، فمنذ شب عن الطوق ونفسه تطمح للوصول الى مركز أبيه ، فلما توفى الوالد دعى ابنه للخدمة مكانه ، وكان حينئذ فى الثامنة والعشرين من عمره ، حيث تولى أمانة السر لأستاذه الرئيس « أبى الحسن بن الجياب » وزير السلطان ابى الحجاج يوسف الأول النصرى وكاتبه (3) ، ثم خلف أستاذه فى الوزارة ، وتقلد ديوان الانشاء لهذا السلطان ، وكان ابن الخطيب يومئذ قد ملك زمام أرفع الأساليب شعراً ونثراً ، بفضل أستاذه الراحل ، وظهر أثر هذه التلمذة على رسائله السلطانية ، التى حررها بقلمه على لسان ملوك الأندلس والمغرب ، والتى نعتها المؤرخ ابن خلدون بالغرائب ، وقد جمع ابن الخطيب نفسه منها الكثير فى كتابه « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » ، كما أورد المقرى عددا منها فى مؤلفه « نفح الطيب » (4) ، ويعتبر كتاب ابن الخطيب « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » مجموعة من الرسائل السلطانية التى تمثل العلاقات السياسية بين غرناطة والمغرب ، فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، على لسان سلطانه يوسف الأول ابن الأحمر ، الى معاصره فى فاس أبى عنان فارس المرينى .

---

2) العبر لابن خلدون جـ 7 ص 332 .

3) توفى ابن الجياب بوباء الطاعون الجارف ، فى شوال 749 هـ (يناير 1349 م) .

4) جـ 3 ص 570 ، وما بعدها ، جـ 4 فى عدة مواضع منه .

ولقد كسب ابن الخطيب ثقة هذا السلطان الغرناطي ، حيث قربه من مجلسه ، وخلع عليه الجم من النعم ، كما أنه أصبح أثيراً لديه ، مودعاً اياه أمانة سره وكتابته ، وذلك لروعة هذه المكاتبات السلطانية التي دبجها له من جهة ، ولنجاح سفاراته مع ملوك النصارى والمغرب من جهة أخرى ، فقد بعثه عاهل غرناطة سفيراً الى أبي الحسن المريني ملك المغرب عام 749 هـ (1348 م) .

ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف قتيلا ـ في يوم عيد الفطر 755 هـ (19 أكتوبر 1354 م) ـ خلفه في الملك ولده السلطان محمد الخامس الغني بالله ، واستمر ابن الخطيب في معاونة الوزير أبي النعيم رضوان على خدمة السلطان الجديد ، كما تولى الوصاية على الأبناء القصر للسلطان المتوفى ، ثم قام بسفارة الى السلطان « أبي عنان فارس المريني » عام 755 هـ = 1354 م ، ولقد نجح ابن الخطيب في مهمته هذه نجاحاً عظيماً ، ذلك أن ملك المغرب استجاب للمطالب التي حملها ابن الخطيب لصالح ملك غرناطة ، وفي مقدمتها العون الحربي لمقاومة أطماع ملك قشتالة .

ولقد ظفر ابن الخطيب بمكانة ممتازة لدى الغني بالله ، اذ منحه ثقته كأبيه من قبل ، وخلع عليه لقب (ذو الوزارتين) ، لجمعه بين وزارة القلم ووزارة السيف .

ولكن حدث أن اندلعت الثورة بغرناطة ، في رمضان 760 هـ = 1359 م ، ونتج عنها فقدان السلطان الغني بالله لملكه ، واستيلاء أخيه الأمير اسماعيل على العرش ، كما تمخضت هذه الثورة عن مقتل الحاجب أبي النعيم رضوان ، ثم فرار الغني بالله الى وادي آش (5) ، وعليه فأصبح ابن الخطيب لا يملك من الأمر شيئا ، غير أنه حاول أن يستميل السلطان الجديد ، فقبله في منصب الوزارة مؤقتا ، ثم تشكك بعد قليل في نواياه ، وذلك بتحريض منافسيه وحساده ، فقبض عليه ، وصادر أملاكه ، وبذلك فقد ابن الخطيب جاهه ونفوذه ، بل ومتاعه بين عشية وضحاها .

---

5) راجع ما كتبناه عن هذه المدينة في وصف ابن الخطيب للمدن الأندلسية من هذا الكتاب .

لم تطل هذه النكبة بابن الخطيب ، فقد بعث ملك المغرب السلطان أبو سالم سفيره (الشريف أبا القاسم التلمساني) الى ملك غرناطة الجديد ، يطلب اليه أن يسمح للملك المخلوع (الغني بالله) ووزيره ابن الخطيب بمغادرة الأندلس الى المغرب ضيفين عزيزين ، فرضخ سلطان غرناطة لهذا الطلب ، سياسة منه في الابقاء على أواصر الوداد مع بني مرين ، واحتفاظاً بهم سنـدا لمستقبل الدولة الاسلامية بالأندلس . ولهذا أطلق سراح ابن الخطيب ، ولحق بسلطانه ، حيث لجأ إلى وادى آش ، ومن ثم الى المغرب ، ومعهما نفر كبير من الحاشية ، فوصل الركب فاس في محرم 760 هـ (ديسمبر 1358 م) حيث استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالا حاراً ، واحتفل بقدومهم احتفالا عظيما ، وألقى ابن الخطيب في هذه المناسبة ـ بين يدى المضيف ـ قصيدته الشهيرة (6) ، يستنصره ويستصرخه ؛ ليعين سلطانه على أمره .

ويشهد ابن خلدون المؤرخ ذلك الحفل ـ بصفته من كبار رجال البلاط المريني ـ فيصفه لنا ويقول : « إن ابن الخطيب استولى على سامعيه ، فأبكاهم تأثـراً » .

هذا وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب فى رعاية السلطان« أبى سالم »، الذى أقطعه الأراضى، ورتب له الرواتب ، حيث استقر فى مدينة « سلا » (7) حوالى ثلاثة أعوام منفياً 760 ـ 763 هـ (1358 ـ 1361 م) ، اقتنى خلالها الضياع والأموال، ولكن لم ينس ـ فى الوقت نفسه ـ نزعته الثقافية والتأليفية، فجاس خلال مدن المغرب دارساً باحثاً ، ملتقياً بالعلماء فى تجواله ، وفى نهاية المطاف يرجع الى سلا ، حيث يرابط بضاحية « شالة » ، قرب أضرحة ملـوك بنـى مريـن .

---

6) نفح الطيب للمقرى جـ 3 ص 46 ـ 48 ، أزهار الرياض لنفس المؤلف جـ 1 ص197 ـ 200 وهى ثمانون بيتا .

7) سنعرف ايضاً بهذه المدينة من بعد فى مناسبة وصفها .

ولقد اصيب ابن الخطيب ـ ابان هذه الفترة ـ فى زوجته أم أولاده ، وبالرغم من كل ما أصابه من نكبات متوالية فانه لم يقعد عن التأليف ، ولم يخلد الى الراحة والسكينة ، ويكفى دليلا على هذا تلك المؤلفات التى حررها وقتئذ ، ومن أهمها :

1) معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار (هذا الكتاب) .

2) نفاضة الجراب ، وعلالة الاغتراب .

3) اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية .

4) الحلل المرقومة ، فى اللمع المنظومة (8) .

5) رقم الحلل ، فى نظم الدول .

6) كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان .

7) رسائل فى فنون مختلفة ، معظمها نظمه شعرا .

وفى هذه الأثناء تم انقلاب فى فاس ، ترتب عليه مصرع السلطان أبى سالم ، فى ذى القعدة 762 هـ (1360 م) ، وتقلد السلطان صاحب الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله ، الذى أعان ابن الأحمر المخلوع على أمره ، ووقف الى جانبه فى استرجاع عرشه ، حتى سنحت الفرصة ، وواتت الظروف ، باندلاع ثورة جديدة فى غرناطة ، صرع فيها السلطان اسماعيل بن الأحمر على يد الرئيس أبى سعيد ، الذى فر الى (قشتالة) عقب عودة الغنى بالله الى الأندلس ، واستيلائه على ولاية مالقة ، ثم دخوله غرناطة ، وتربعه على العرش من جديد عام 763 هـ = 1361 م .

لقد استدعى سلطان غرناطة الجديد ، محمد الخامس الغنى بالله ، وزيره المنفى ابن الخطيب ، ليقدم الى دار ملكه ، برسالة مؤرخة : 14 جمادى الآخرة 763 هـ (15 أبريل 1361 م) وليتقلد منصبه السابق ، فاستجاب ابن

---

8)هذا الكتاب يتحدث فيه ابن الخطيب عن تاريخ الدولة الاسلامية ، وقد اهداه الى السلطان أبى سالم المرينى ملك المغرب ، فكافاه عليه بمضاعفة رواتبه ، كما كتب ـ فى شان المؤلف ـ الى سلطان غرناطة ، يطلب منه الافراج عن ممتلكات ابن الخطيب المصادرة .

الخطيب ، وجاز البحر صحبة أسرة السلطان وأسرته ، ثم وصل العاصمة ، وهناك وجد من يزاحمه منصبه ، وينافسه السلطة ، وهو شيخ الغزاة (عثمان بن أبي يحيى) ، صاحب اليد على السلطان في استرجاع العرش ، فنشب خلاف بين الرجلين ، وحقد كلاهما على الآخر ، ولكن ابن الخطيب كان أشد مراساً بأساليب الكيد والدس ، فتغلب على خصمه ؛ اذ زين للسلطان خطورة نفوذ عثمان هذا ، وبدأ يخيفه من غدره وغدر أشياعه ، فاستجاب ابن الأحمر لنصح ابن الخطيب ، وقضى على عثمان وآله في شهر رمضان 764 هـ = 1363 م ، وبذلك استرد ابن الخطيب كامل سلطته ، دون مناوىء أو منافس ، ولكن الى حين ، فقد شعر مرة أخرى بما يحاك حوله من دسائس ومكائد ، ورأى سلطانه يتأثر بسعاية الخصوم ، وقد تزعم هذه الحملة الجديدة ضد ابن الخطيب رجلان وثيقا الصلة بالسلطان بحكم وضعيتهما في الخدمة السلطانية ، ولمكانتهما السياسية في الدولة ، وهما :

1) الشاعر محمد بن يوسف المعروف بـ « ابن زمرك » تلميذ ابن الخطيب ، ومعاونه في الوزارة .

2) قاضي الجماعة أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي ، ولي نعمة ابن الخطيب .

وحينئذ شعر ابن الخطيب بخطورة موقفه عند السلطان ، بين هذين الرجلين الداهيتين ، فدبر أمره على مغادرة الأندلس نهائياً ، دون أن يشعر السلطان مطلقاً بذلك ، وفعلا طلب منه أن يأذن له في تفقد بعض الثغور والموانىء الأندلسية ، فأجابه السلطان ، وكان وزيرنا ـ من جانبه ـ قد أعد العدة للابحار الى المغرب ، حيث يحل ضيفاً لاجئاً على السلطان أبي عنان فارس بن أبي الحسن المريني ، وقد تم له ذلك بوصوله الى جبل طارق ، الذي كان يومئذ ضمن أملاك المرينيين ، ونجحت الخطة ، اذ استقبله قائد الميناء بحفاوة ، وسهل له مهمته ، بأمر من سلطان المغرب ، وأجازه الى سبتة هو ومن معه من ولده ، وقبل أن يودع هذه البقاع بعث برسالة مؤثرة الى السلطان الغني بالله

يعلل فيها مسلكه هذا ، ويبرر تصرفه الاضطرارى ، وأخيراً يطلب غفرانه ، راجياً عونه لأسرته التى خلفها وراءه فى غرناطة .

وصل ابن الخطيب الى سبتة ومنها التحق بتلمسان ، مقر السلطان عبد العزيز الذى احتفي به وأكرمه ، ثم بعث بسفرائه الى غرناطة ، يلتمس من سلطانها ان يجيز أسرة ابن الخطيب ، فأجابه ابن الأحمر الى طلبه ، وكان ذلك عام 773 هـ = 1371 م .

وكان من المتوقع أن يهنأ ابن الخطيب بهذا المقام بالمغرب ، فالسلطان قد أحله مكانته اللائقة به ، وأبدله مما فقد الشيء الكثير ، ولكن ـ للأسف ـ اتخذ منافسوه بغرناطة من هربه ـ على هذه الصورة ـ مادة دسمة للكيد ، وأكدوا للسلطان محمد الخامس ابن الأحمر ادانته ، وعدم وفائه لولى نعمته ، وزاد الاتهام تأكيداً أن ابن الخطيب كان حريصا على أن يحمل معه أمواله وذخائره الى المغرب ، وفى هذا يخاطب القاضى النباهى غريمه ـ فى الرسالة المعروفة التى بعث بها اليه : « فهمزتم ولمزتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم ، . . ، ثم هربتم بأثقالكم » (9) .

كان القاضى النباهى فيما سبق من أنصار الوزير ابن الخطيب ، بل إن تعيينه قاضياً للجماعة واستصدار ظهير هذا المنصب قد تم على يدى ابن الخطيب نفسه ، كما نجد فى كتاب الاحاطة ترجمة للنباهى تنبىء عن تقدير ابن الخطيب لهذا الرجل ؛ اذ ينعته بأنه « قريع بيت مجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، بعيد الغور ، مرهف الجوانب ، ناظم ، ناثر ، نثره يشف عن نظمه ، ذاكر للكثير ، بعيد المدى فى باب النزاهة ، ماضي غير هيوب . . . الخ » ، ولكن ذلك « النباهى » تنكر تماماً لابن الخطيب ، ولم يحفظ له هذا الجميل ؛ فقد آزر الوزير « ابن زمرك » ضده ، وسعى سعياً حثيثاً فى سبيل القضاء عليه ، وتتجلى هذه الروح الشريرة ، وما يمليه الحقد الشخصى ، والضغائن الدفينة ، فى تلك

9) المقرى فى « نفح الطيب » جـ 7 ص 56 .

الرسالة التى بعث بها القاضى النباهى الى ابن الخطيب بالمغرب ، وفيها يعيب عليه الانصراف الى اقتناء الضياع والديار ، كما أنه نسب اليه ـ فى بعض مؤلفاته ـ بعض محدثات فى الدين ، مما يمس الشريعة الاسلامية ، كما تناول فى بعض هذه المؤلفات الأموات من الناس ، وذلك بالطعن أو العيب فيهم ، الأمر الذى يستنكره الدين . . . . ، الى آخر ما جاء فى تلك الرسالة من هذه المثالب ، وحتى مغادرة ابن الخطيب للأندلس مؤخراً ـ على تلك الصورة ـ رأى فيها النباهى غدراً بالسلطان ولى نعمته ، كما كذبه فى ادعائه الانقطاع للعبادة فى المغرب ، وأنه لو أرادها حقيقة لقصد الديار المقدسة ، أو أبقى على نفسه بغرناطة بجوار الكفاح والجهاد ، لنصرة المملكة الاسلامية التى يتهددها خطر الأسبان كل حين .

وفى الأخير ينهى النباهى رسالته بالنيل من أسرة ابن الخطيب ، بأنها حديثة النعمة ، وأن ثروتها هذه لم تأت الا عن طريق المنصب والسلطة . .

وقد كان لهذه الرسالة أثر كبير فيما بعد ؛ حيث كانت صك الاتهام ، وأدين ابن الخطيب على أساس ما ورد فيها ، وذلك عندما حلت نكبته ، ودنت ساعة نحسه (10) .

هذا ، ويرجع تاريخ الرسالة هذه الى أواخر جمادى الأولى 773 هـ = 1371 م ، وقد تسلمها ابن الخطيب بتلمسان ، وأجاب على ما جاء بها مفصلا ، فى كتابه « الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » ، وشدد النكير على القاضى النباهى ، عندما وصفه بأنه « الجعسوس » أى : القزم الدميم ، وزاد ابن الخطيب فوضع رسالة خاصة للنيل من خصمه اللدود ، وسماها « خلع الرسن ، فى وصف القاضى أبى الحسن » .

ظل القاضى النباهى وابن زمرك على عزمهما بسحق غريمهما ابن الخطيب ، فبعد احراق كتبه العقائدية ، عهد النباهى الى قضاة غرناطة باستصدار حكم الشرع فى جريمة الالحاد ، وهو الاعدام ، وحصل من السلطان على مصادقة بهذا

---

10) المقرى فى « أزهار الرياض » جـ 1 ص 212 ـ 224، حيث أورد المؤلف الرسالة كاملة.

الحكم ، وبعث القاضي أبو الحسن بنوابه الى السلطان عبد العزيز وبأيديهم هذا الحكم ، فقابل السلطان رسل غرناطة بالاستنكار ، وخاطبهم قائلا : « هـلا انفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه ! ! ! » وبالغ في اكرام ابن الخطيب ، وأضفى عليه مزيداً من عنايته .

وتجدر الاشارة هنا الى أن ابن الخطيب قد لاحظ وقتئذ قوة المغرب في عهد صديقـه السلطان عبد العزيز ، ومبلغ العداء بين فاس وغرناطة وقد بلغ أوجه ، فحرض السلطان على ضم غرناطة لمملكته ، وقد رمى من وراء ذلك الى سحق أعدائه هناك ، وتأمين مقامه بالمغرب ، وما يتبع ذلك من حمايـة مصالحـه .

ويظهر أن هذه السياسة قد لاقت قبولا عند السلطان عبد العزيز ، فصمم على تنفيذها ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ثم تأكدت العداوة بينـه (ابن الخطيب) وبين ابن الأحمر ، فرغب السلطان عبد العزيز في ملك الأندلس وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعـه من تلمسان الى المغـرب (II) » ، وبلغت ابن الأحمر رغبة ملك المغرب هذه ، فتخوف لذلك كثيراً ، وأسرع الى ايفاد رسله بالهدايا والتحف الثمينة الى بلاط فاس ، آملا في نيل رضا السلطان عبد العزيز ، واتقاء شره . ثم تفاجىء الظروف الموقف ، فيموت السلطان عبد العزيز بعدئذ بقليل ، ويجلس على عرش المغرب ابنه « أبو زيان محمد السعيد » طفلا في الرابعة من عمره ، في ربيع الآخر 774 = 1372 م ، وقبض على زمام السلطة الفعلية وزيره « أبو بكر بن غازي » ، فتغيرت الأوضاع السياسيـة بالمغرب تماما ، واضطر ابن الخطيب حينئذ أن يتزلف الى الملك الطفل ووزيره ، فألف كتابه المعروف باسم « أعمال الأعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » ، وفيه يبرر هذا الوضع الجديد شرعا ، وعرفا وتاريخا ، وأورد لذلك الأشباه والنظائر ، رداً على المناهضين بالمغرب ، وخاصة بني الأحمر وعملائهم .

II) ابن خلدون في « العبر » جـ 7 ص 338 - 341 .

وفي هذه الأثناء قام السلطان ابن الأحمر بمحاولة أخرى للايقاع بابن الخطيب ، وذلك بأن أوعز الى الوزير « ابن غازى » أن يبعث اليه بابن الخطيب ، فامتنع ابن غازى ، وتوترت العلاقات مرة أخرى ، بين غرناطة وفاس ، الأمر الذى جعل ابن الأحمر يوغر صدور هؤلاء الأمراء المرينيين ضد النظام القائم فى فاس ، وبذل فى سبيل القضاء على هذا النظام مساعدات ضخمة ، كما أقنع من اتصل بهم من حكام الأقاليم ـ وخاصة حاكم سبتة أبا محمد بن عثمان ـ بأن من الأفضل للمغرب أن يكون الملك رجلا راشداً ، لا طفلا صغيرا ، لا يدرك شيئاً ، واتفق معه على تنصيب الأمير المرينى أبى العباس أحمد بن أبى سالم ملكاً على المغرب ، وأنه ـ أى محمد بن عثمان ـ سيكون الوزير مستقبلا ، وأعطاه المزيد من المساعدات الهائلة لتنفيذ هذا الاتفاق ، على أن يحقق هذا الوزير لابن الأحمر ثلاثة مطالب ، بعد نجاح الخطة ، وهى :

1) تسليم ابن الخطيب .

2) تسليم الأمراء المناهضين لابن الأحمر .

3) تسليم جبل طارق .

ووقعت بعض الحوادث بالمغرب ، وتمخضت عنها ثورة قاضية ، أدت الى حدوث الانقلاب المنشود لابن الأحمر ، ونودى حينئذ بالأمير أحمد بن السلطان ابى سالم والياً على المغرب (776 هـ = 1374 م) .

وهنا أسرع السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب ، وسجنه ، وبذلك تهيأت الفرصة لوضع نهاية الوزير المنكود ؛ فقد كان الوزير الجديد ببلاط فاس سليمان بن داود من ألد خصوم ابن الخطيب ، ومن جهة أخرى فقد أرسل سلطان غرناطة سفيره ووزيره عبد الله بن زمرك الى فاس ليشهد آخر فصل فى هذه الرواية ، وليدق آخر مسمار فى نعش ابن الخطيب ، وبوصول ابن زمرك عقد السلطان أحمد مجلساً من مستشاريه وكبار رجال الدولة ، ونوقش ابن الخطيب أمام هذا المجلس ، حول كافة الادعاءات المقامة ضده ، وبالأخص دعوى الالحاد ، تلك الدعوى التى صاغها القاضى النباهى من قبل ، وكان مجلساً

صورياً بطبيعة الحال ؛ فان نتيجة المحاكمة كانت مقررة ، ومتفقاً عليها من قبل، في كل من غرناطة وفاس .

لقد أوذى ابن الخطيب أمام شهود هذه المؤامرة ، وأفتى الفقهاء المتعصبون باعدامه شرعاً ، فأعيد الى سجنه حيث دبر الوزير سليمان بن داود أمر قتله في السجن ، وفعلا بعث اليه ببعض الأشرار الذين قتلوه خنقاً أواخر عام 776 هـ = 1375 م ، وفي الصباح سحبت جثته الى الفضاء ، حيث تم حرقها ، ودفن بضاحية فاس (12) .

ويروى المقرى أنه تمكن مؤخراً من معرفة قبر ابن الخطيب ، وذلك خلال اقامته بفاس ، أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (القرن السابع عشر الميلادى) ، فزاره مراراً حيث يرقد ، وفي هذا يقول : « وقد زرته مراراً ـ رحمه الله تعالى ـ بفاس المحروسة ، فوق باب المدينة الذى يقال له : باب الشريعة ، وهو يسمى الآن « باب المحروق » ، وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الأرض، بل ينزل اليه بانحدار كثير (13) » .

رحم الله ابن الخطيب كفاء ما زود التاريخ من ذخائر ، وأهدى العلوم والمعارف من نفائس .

---

12) ابن خلدون « العبر » ، جـ 7 ص 341 ـ 342 .

13) المقرى « نفح الطيب » ، جـ 7 ص 83 .

ابن الخطيب
في نظر بعض المؤرخين والمستشرقين

قضى الوزير الفذ ، والمفكر العظيم ، والمؤرخ الكبير ، والموسوعة العلمية ، على هذا النحو ، ضحية الأحقاد والأضغان ، وبالرغم مما أثير حول الرجل إبان محنته من موجة عارمة بالسخط ، فان هذه الموجة لم يطل أمدها ، اذ كانت مغرضة عارية من ثوب الحقيقة ، يدل على هذا ما رأيناه من المؤرخين القدامى ، الذين انبرت أقلامهم لانصافه ، واحلاله المكانة اللائقة به بين رجال التاريخ ، ونخص من المؤرخين أولئك الذين قربوا من عهده ؛ فابن خلدون صديقه القديم يسجل أولا أنه « هو الهالك لهذا العهد ، شهيداً بسعاية أعدائه (I4) ، » ثم يورد ـ فى مقام آخر ـ أنه « شاعر الأندلس والمغرب فى عصره » ، كما يشهد له فى ميدان الشعر والنثر بقوله : « وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره ، مع انتقاء الجيد منه ، وبلغ فى الشعر والترسل ، حيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » ، ويتحدث ابن خلدون كذلك عن رسائل ابن الخطيب السلطانية بقوله : « وصدرت عنه غرائب من الترسل فى مكاتبة جيرانهم (ملوك بنى الأحمر) من ملوك العدوة » .

وحقا لقد خلف ابن الخطيب من هذه الرسائل روائع ، تعد نموذجاً رفيعاً ، لما بلغه قلم الرجل من شأو فى فن النثر الوزارى السياسى خاصة ،

I4) المقرى « ازهار الرياض » جـ I ص I9I .

سواء ـ من هذه الرسائل ـ ما بعث به على لسان سلطانه الى ملوك المغرب أو ملوك النصارى ، أو سلاطين مصر ؛ فبين أيدينا الكثير الجمّ ، ويعتبر كتابه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » مجلداً ضخماً لألوان نثر ابن الخطيب المختلفة، ما بين أغراض سلطانية ، الى رسائل اخوانية ، الى أوصاف حربية لمعـارك دارت رحاها على أيامه .

أما المقرى فقد جمع فى مؤلفه « نفح الطيب » معظم آثار ابن الخطيب . وما كان له من أخبار فى الفترة التى عاشها بالأندلس والمغرب ، ويكاد يكون معظم هذا السفر الضخم وقفاً على ابن الخطيب ، حتى أنه قرن اسم الكتاب به .

وقد أشاد المقرى فى أكثر من موضع ـ من كتابه هذا ـ بوزيرنا ، فيقول عنه مثلا : « اذ هو فارس النظم والنثر فى ذلك العصر ، والمنفرد بالسبق فى تلك الميادين بأداة الحصر (15) » .

وفى مجال العلوم والآداب بألوانها هو « امام هذه الفنون ، المحقق لذوى الآمال والظنون ، المستخرج من بحار البلاغة درها المكنون ، وله اليد الطولى فى العلوم على اختلاف أجناسها ، والألفاظ الرائعة التى تزيح وحشة الأنفس بايناسها (16) » .

وبالجملة ، فالمقرى يرى أن ابن الخطيب « قد قصرت السن البلغاء عن عُلاه ، وزانت صدور الدواوين حُلاه ، وجمع خلالا حسانا ، وكان للدين لسانا (17) » .

أما الأمير « أبو الوليد اسماعيل ابن الأحمر » ، معاصر ابن الخطيب ، فيسجل فى كتابه « نثير فرائد الجمان ، فيمن ضمنى واياهم الزمان » مواهب

---

15) المصدر السابق جـ 1 ص 77 .

16) المقرى « نفح الطيب » جـ 1 ص 110 .

17) المقرى « نفح الطيب » جـ 1 ص 111 .

هذا الوزير وعبقرياته ، فيقول : « هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب العَرْض الى يوم العَرْض ، لا يُدافَع مدحه فى الكتب ، ولا يُجنح فيه الى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وسيف مقولة ليس بالكهام ؛ اذ هو الماضى ، والا فانظر كلام الكُتاب الأوّل من العُصبة ، كيف كان فيهم بالافادة صاحب القصبة ، للبراعة ، باليراعة ، وبه أسكت صائلهم ، وما حمدت بكرهم وأصائلهم ، المشربة بالحلاوة ، المكنة من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والامتاع بالفهوم العقلية (18) » .

كذلك يبدى النقاد الأجانب اعجابهم وتقديرهم لابن الخطيب ، وينوّهون فى كثير من المناسبات بمنزلة الرجل العلمية والأدبية ، وما زالت آثاره محل دراستهم المستفيضة ، معينا لا يغيض ، ومنهلا بالمعارف يفيض .

وفى طليعة هؤلاء النقاد الأجانب المستشرق الأسبانى (سيمونيت Simonet) حيث يقول : « ان ابن الخطيب قد خلّف لنا آثاراً كثيرة ، فى النثر والشعر ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والرحلات ، والبلاغة ، والشريعة ، والعلوم ، والأخلاق ، والدين ، والنبات ، والطب والبيطرة ، والموسيقى ، والفن الحربى ، والسياسة ، وكلها غنية فى الابتكار والتعمق والرشاقة (19) » .

وبهذه المناسبة نذكر أن المستشرق « سيمونيت » تناول بالتحقيق والترجمة المدن الأندلسية التى وصفها ابن الخطيب فى كتابه « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار » موضوع هذا الكتاب ـ كما أسلفنا فى المقدمة ـ على نحو ما سنفصل القول عنه فى الباب الثالث ، عند حديثنا عن قيمة مؤلفه هذا من الناحيتين التاريخية والأدبية .

---

18) المقرى « أزهار الرياض ، فى أخبار القاضى عياض » جـ ١ ص ١٩١ .

19) F. J. Simonet. Discripcion Del Rieno de Granada, Sacada Del Los Autores Arabigos.

هذا ، ويكفينا فى هـذا العرض الموجز للتعريف بابن الخطيب أن نقتصر على آراء هؤء المؤرخين وبعض المستشرقين كشهادة صادقة للرجل الذى دخل دخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وإن هذه الشهادة من أمثال هؤلاء لفى غنى منا عن التعليق ، فقد استقاها أصحابها من واقع مؤلفاته العديدة ، أبلغ حجة ، وأوضح بيان ، وأقوى برهان ، على مدى ما بلغه ابن الخطيب من شهرة سمت الى الأوج ، لما تمتع به من عقلية فذة ذات آراء نافذة .